



دراسات أفريقية

المركز الإسلامي للأفريقيات

مجلة بحوث نصف سنوية

العدد الثاني • شعبان ١٤٠٦ هـ • أبريل ١٩٨٦ م

نظرة أفريقية للصراع العربي الإسرائيلي

البروفيسر مدثر عبد الرحيم

حركات الشيخ عثمان بن فودي ومحمد أحمد المهدي

البروفيسر عثمان سيد أحمد اسماعيل

ظاهرة الاستعمار في أفريقيا والعالم العربي

الدكتور حسن سيد سليمان

معالم الحضارة الإسلامية في ساحل شرق أفريقيا

الدكتور تاج السر سيد أحمد العراقي

طرق القوافل عبر الصحراء في المصادر العربية

الدكتور أحمد الياس

بيت المال في المهديّة

الدكتور فيصل محمد موسى

ظاهرة الاستعمار في افريقيا والعالم العربي

د. حسن سيد سليمان *

مقدمة :

يقصد بلفظ الاستعمار قيام دولة بغرض سيطرتها الكاملة خارج حدودها على شعب دولة أخرى وبدون مرافقة ورضا أهلها . وتقوم هذه السيطرة على استغلال الاقليم المستعمر وسكانه مما يفقد هذا الاقليم سيادته الداخلية والخارجية فيصبح اقليماً مستعمرًا وليس دولة . وقد ادعت الدول الاستعمارية في ذلك وجود شرعية للاستعمار تبررها حق الغزو على أراضي الغير الضعفاء دون مراعاة لحقوقهم في الحرية والحياة الكريمة المستقلة .

وبذلك أصبح الاستعمار ، في واقع الامر نوعاً جديداً للعبودية - أى عبودية الانسان للانسان - التي عرفتها البشرية في الحضارات القديمة والتي رفضتها بعد ذلك الرسائل السماوية . وقد اختلفت الآراء والنظريات حول أهداف الاستعمار حيث ركز البعض على الأهداف الاقتصادية أى العمل على استغلال الموارد الطبيعية لصالح المستعمر - ، وركز البعض الآخر على الأهداف الاستراتيجية - أى الاستفادة من الموقع الجغرافي للبلاد المستعمرة في العمليات العسكرية وغيرها (مثلاً قناة السويس بالنسبة لربط بريطانيا بمستعمراتها في الهند) .

ولكن هذه الأهداف كانت في حقيقة الأمر أهدافاً قصيرة المدى بالنسبة للدول الاستعمارية اذ أن الأهداف ذات المدى البعيد كانت وما زالت في الواقع أهدافاً حضارية أن هذه الدول كانت تسعى دائماً لفرض حضارتها على البلدان المستعمرة في العالم الثالث ^(١) .

والملاحظ أن الاستعمار في شكله التقليدي أو القديم قد اعتمد على الاحتلال العسكري المباشر لتحقيق أهدافه وكان من أساليبه أيضاً ، بجانب استغلال ونهب الثروات الطبيعية للاقاليم المستعمرة ، العمل على تشويه معالم سكان هذه الاقاليم الحضارية - من خلال التبشير الديني وفرض لغة المستعمر وثقافته - وكذلك تشجيع رعايا الدولة المستعمرة على الهجرة بغرض الاستيطان في الاقاليم المستعمرة مما يضع أهل هذه الاقاليم الاصليين في ظروف معيشية تجعلهم في درجة أقل من

* محاضر في العلوم السياسية بجامعة الخرطوم .

مكانة المستوطنين الاجانب الذين يحظون برعاية الحكومة الاستعمارية بالحصول على امتيازات معينة ليست من نصيب السكان الاصليين أو المحليين .

أما الاستعمار الحديث ، وهو شكل جديد للاستعمار حل محل الاستعمار القديم ، فإنه يعنى أيضاً فرض السيطرة الاجنبية بشتى أنواعها ، عسكرية ، سياسية ، اقتصادية ، ثقافية ، وأيدولوجية - على دولة ما مع الاعتراف باستقلالها وسيادتها (التى تصبح بالتالى سيادة رسمية أو شكلية) . ولا يعتمد هذا الاستعمار الجديد بالتالى على أساليب الاستعمار التقليدى المباشر بل يستخدم وسائل جديدة خفية وغير مباشرة للوصول لنفس الأهداف مع تحاشي المعارضة الشعبية الصريحة لهذه الدولة المستقلة أو معارضة الرأى العام العالمى . ومن أهم وسائل هذا الاستعمار الجديد أو الامبريالية الجديدة كما يسمى أيضاً ، عقد الاتفاقيات الثنائية غير المتكافئة ، تكبير الدولة النامية ، والتى فى طور النمو ، فى العالم الثالث (أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية) بشروط تحرمها من حرية الحركة والتصرف ، استغلال المشاكل الاقتصادية والادارية للدولة الحديثة الاستقلال بهدف التدخل فى شئونها والضغط عليها فى صورة معونات وقروض ، اقامة القواعد العسكرية ، اثاره الاضطرابات الداخلية والانقسامات الطائفية والحزبية والعنصرية لاضعاف الدولة حديثة الاستقلال وايقاعها بالتالى تحت السيطرة الاجنبية ، استخدام المنظمات الدولية التى تقوم فيها الدول الكبرى بدور رئيسى فى الضغط على الدول النامية وتوجيه سياساتها (٢) .

ونود فى هذا البحث أن نركز على بروز ظاهرة الاستعمار وتطورها عبر القرون خاصة ما حدث من تطور للاستعمار الاوربى بتحويله من شكله التقليدى الى شكله الحديث مع توضيح ذلك من خلال حالات دراسية أو أمثلة محددة تعبر عن الاساليب الاستعمارية المختلفة فى كل من مرحلتى هذا التطور حتى نصل بذلك فى نهاية الامر الى استنتاجات علمية حول هذا الموضوع .

ولهذا فان نقطة البداية ستكون عن الخلفية التاريخية لظاهرة الاستعمار وتطور هذه الظاهرة عبر الاستعمار الاوربى التقليدى على بلدان العالم الثالث ، ومنها البلاد العربية والافريقية . والى مرحلة حصول معظم هذه البلدان على استقلالها السياسى نتيجة لتطور حركات التحرير الوطنية التى قادت الكفاح والنضال بشكل مستمر وبأساليب مختلفة بهدف التحرر والانعتاق من السيطرة الاستعمارية المباشرة . ثم يركز البحث بعد ذلك على دراسة حالات معينة كأمثلة للسياسات الاستعمارية المختلفة التى مارستها دول أوروبا الاستعمارية - خاصة بريطانيا وفرنسا - على البلدان المستعمرة . ويلى ذلك بحث ظاهرة الاستعمار الجديد وما ترتب عليه من استمرار للاستعمار القديم فى شكل اساليب جديدة وغير مباشرة تهدف فى النهاية الى اخضاع دول العالم الثالث المستقلة ذات السيادة للتبعية للدول الكبرى التى تسعى لفرض نفوذها على هذه الدول بصورة منظمة كما حدث فى الماضى بهدف تجنب المواجهة والصدام بين هذه الدول الكبرى وبعضها البعض . وهذا يحتم فى نهاية البحث أن نهتم ، بجانب الاستنتاجات الرئيسية ، بتقديم المقترحات العامة لمواجهة مخاطر ذلك الاستعمار أو الامبريالية الجديدة على دول العالم الثالث ، والله الموفق ، ،

بروز ظاهرة الاستعمار :-

قد يعد الاستعمار قديماً قدم الانسان بسبب الهجرات والغزوات منذ التاريخ القديم للبشرية ، ولكن هذه التحركات لم تكن مقننة أو مخططة حيث أنها لم تتجه تدريجياً وبشكل أوضح نحو الاستعمار الا مع تطور المجتمع والحضارة وزيادة الارتباط البيئي ، عضوياً ومجتمعياً بين الجماعات والاقاليم ، مع زيادة نمو الدولة كشكل سياسي . وقد حدثت صراعات مختلفة في العالم القديم بين قوى البربر وبين قوى البر والبحر ، وكان البحر المتوسط هو المسرح الرئيسي لمثل هذه الانشطة التعميرية أو الاستعمارية حيث كانت موجات الاستعمار البحري تقطع البحر في كل اتجاه مثلاً من فينيقيا الى قرطاجنة ، من أثينا الى آسيا الصغرى وابطاليا ، ومن قرطاجنة الى ايبيريا . وتطلعت قوة البحر أولاً الى التوسع الاقليمي في الاراضي المقابلة أو المجاورة أو المحيطة على اليابس . وبدأ بذلك تأسيس الامبراطوريات البحرية المتزامية الشهيرة في التاريخ (والتي انطلقت من اليونان وروما حيث كونت الامبراطورية الرومانية نموذج الدولة العالمية) والتي كانت بمثابة نخط أولى بدائي لامبراطوريات الاستعمار الاوربي في عصرنا الحديث (٣) .

أما بالنسبة للدولة العربية الاسلامية التي امتدت في العصور الوسطى من أراف الصين الى أبواب فرنسا ، والتي يزعم بعض الكتاب الغربيين أنها كانت امبراطورية استعمارية ، فأنها كانت في حقيقة الامر دولة تحرير بكل معنى الكلمة لأنها حررت كل هذه المناطق الواسعة من سيطرة الاستعمار الروماني أو الفارسي المتداعي واضطهاده الوثني وابتزازه المادي . وبعد قيام هذه الدولة العالمية لم تعرف أية نزعة عنصرية أو حاجزاً لونياً بل كانت وحدة مفتوحة من الاختلاط والتزاوج الحر ، وما عرفت ابداً أية شعوبية أو حاجزاً حضارياً حيث كانت وسطاً حضارياً متجانساً مشاعاً للجميع ، كما لم تخلق نواة مركزية متميزة على سائر المقاطعات والاقاليم لان عاصمتها السياسية انتقلت من المدينة المنورة الى الشام والعراق ثم مصر الفاطمية ، كما كان للمغرب مركزاً آخر للقوة وكذلك الاندلس مما جعل هذه الدولة العربية الاسلامية أو كومونولث في التاريخ بالمعنى الحديث مع الفارق الهام في انها لم تمر بالمرحلة الاستعمارية المشينة التي مر بها كومونولث اليوم (٤) .

ويمكن تقسيم الاستعمار الغربي في العصور الحديثة الى مرحلتين أولهما تغطي القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتركز على الاستعمار الاستيطاني لحد بعيد ، وثانيهما تحتل القرن التاسع عشر ويسودها طابع الاستعمار الاستقلالي (٥) . كما يرتبط هذا التطور بالكشوف الجغرافية التي صاحبت التوسع التجاري في المرحلة الاولى فإنه يرتبط بالثورة الصناعية في المرحلة الثانية . وبدأت الكشوف في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر من قبل البرتغال الذي أستأنف مع الاسبان الصراع الصليبي ليبدأ بذلك استعماراً كاثوليكيًا موجهاً ضد الاسلام والمسلمين . فنذ غارات القرصنة الاسبانية على المغرب وقبل الاسترداد النهائي لاسبانيا عام ١٤٩٢ .

انترع الاسبان مدينتي سبتة ومليلة على الساحل المقابل ، بينما بدأ البرتغال بعد ذلك بقليل في إقامة مستعمرة على الساحل الافريقي للمغرب . والواقع أن توسع البرتغال بعد وصول دأجاما للهند عن

طريق رأس الرجاء انما قام على حساب العرب أساساً سواء أكان تجارياً أم استراتيجياً حيث استقرت قوة البرتغال على كل ساحل الهند والمحيط الهندي . وبدأ البرتغاليون يعملون بعد ذلك على ابعاد النفوذ العربى عن ساحل شرق أفريقيا ، واستولوا فى القرن السادس عشر على جزر البحرين وأقاموا فيها الحصون ، وظلوا بها نحو قرن كامل حتى تمكن العرب من طردهم . وفى العقد الثانى من نفس القرن هاجموا عدن مرتين ولكن بدون جدوى وكذلك فعلوا بمسقط حيث نجحوا فى البقاء نحو نصف قرن^(٦) .

وبذلك بدأ الاستعمار الغربى فى العصور الحديثة حيث أسس البرتغال أول امبراطورية استعمارية الا أنها لم تدم طويلاً بسبب المنافسة الاسبانية فى نهاية القرن السادس عشر حيث انتقل اهتمام البرتغال من الشرق الى البرازيل التى جلب لها البرتغاليون الرقيق الافريقى بأعداد ضخمة مما جعلهم مؤسسى مدرسة الرق فى العصر الحديث^(٧) . وشملت الامبراطورية الاسبانية بعد ذلك وفى نفس القرن جزر الهند الغربية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية حتى الارجتين . ويمكن القول أنه اذا كانت أركان الاستعمار البرتغالى هى التبشير والتجارة والاستعمار الاستراتيجى الساحلى ، فان أركان الاستعمار الاسباني هى التبشير والمعادن النفيسة والغزو والاستعمار الاستيطانى .

وبهزيمة الارمادا الاسبانية الشهيرة عام ١٥٨٨ من قبل بريطانيا انتهت اسبانيا كقوة بحرية ، وظهرت قوى أوربية جديدة ممثلة فى فرنسا وهولندا وبريطانيا^(٨) . وهنا نلاحظ أنه بينما ركزت هولندا على الاستعمار التجارى خلال القرن السابع عشر ، نجد أن فرنسا ومن بعدها بريطانيا قد ركزتا بعد ذلك على الجانب العسكرى لبناء امبراطوريات استعمارية ذات أهداف متعددة فى بلدان العالم الثالث .

ويمكن التمييز خلال القرن التاسع عشر بين ظاهرتين بارزتين أولهما التعمير أى خروج أوروبا الى القارات والاقطار الجديدة بقصد الاستعمار الاستيطانى . وثانيهما الاستعمار بمعنى الغزو والتملك السياسى بقصد الاستعمار الاستغلالى أو الاستراتيجى . وبانتشار حوالى ٦٠ مليوناً من العنصر الاوروبى الابيض على القارات الجديدة ، أرادت أوروبا أن تحقق عالمية العنصر الابيض أو أوروبا الكبرى ، بالولاء والتبعية بدرجة أو بأخرى . وبذلك جعل الاستعمار أوروبا قلب العالم ورأسه جغرافياً وسياسياً ، وجعل العالم يتمركز حول قبلة أوروبا ، كما سعى لما يمكن أن يسمى اقامة الاوروقراطية (أى حكم أوروبا) العالمية على بقية العناصر البشرية الاخرى مما جعل من الاستعمار التقليدى - بعد مروره بمراحل الابداء ثم الاسترقاق ثم الاستعمار السياسى - صراع أجناس وحركة عنصرية الاستعمار سافرة فى البلدان فقد حاولت فى النهاية أن تتنقع بأقنعة الرياء والزيف فكان لذلك النظريات الانسانية فى الاستعمار مثل عبء الرجل الابيض ورسالة الحضارة والاب الابيض أو الاخ الاكبر وغير ذلك مما لا يمكن به تبرئة وصمة الاستعمار^(٩) . فالواقع أن سياسات الاستعمار المتعددة كانت تضع مصلحة الدول الاستعمارية فوق كل اعتبار . وقبل التعرض لأمثلة من هذه السياسات الاستعمارية ، لابد من التطرق باختصار لكيفية بسط السيطرة الاستعمارية على بلدان العالم الثالث وعلى الاخص العالمين العربى والافريقى .

السيطرة الاستعمارية على العالم العربي :-

يمكن القول إن السيطرة الاستعمارية على العالم العربي كانت بطيئة جداً حيث أنها لم تكتمل الا في خلال حوالي تسعين عاماً ، أى في الفترة من ١٨٣٠ الى ١٩٢٠ ، وعلى ثلاث مراحل :

١ - مرحلة ثلاثينيات القرن التاسع عشر حيث وقعت الجزائر تحت قبضة الاستعمار الفرنسي عام ١٨٣٠ ، وعدن تحت سيطرة الاستعمار البريطاني عام ١٨٣٩ . ثم تم زحف الاستعمار البريطاني من عدن على طول الساحل الجنوبي والشرق للجزيرة العربية حتى تمت له السيطرة عليها حتى الكويت شمالاً قبل نهاية القرن .

٢ - مرحلة ثمانينات القرن التاسع عشر حيث مدت فرنسا نفوذها من الجزائر شرقاً الى تونس عام ١٨٨١ . واحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ . ومن مصر توسعت بريطانيا نحو السودان تحت ستار استرداد السودان للتبعية التركية عام ١٨٩٨ وتحت ستار اتفاقية الحكم الثنائي لعام ١٨٩٩ .

٣ - العقد الثاني من القرن العشرين قبل وفي أثناء الحرب العالمية الاولى حيث بدأت ايطاليا باقتطاع ليبيا من الدولة العثمانية في ١٩١١ - ١٩١٢ بينما توسعت فرنسا من الجزائر غرباً نحو المغرب الأقصى في عام ١٩١٢ حيث احتفظت اسبانيا بالجزء الشمالى (أو الريف المغربى) اضافة للصحراء الغربية .

وفي اثناء فترة الحرب عقدت بريطانيا وفرنسا اتفاقية سايكس بيكو السرية عام ١٩١٦ لتقسيم وريثة ما سمته الدول الاوربية الاستعمارية (وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا) رجل أوروبا المريض أى الدولة العثمانية في حالة ضعفها وانهارها فانتهت المسألة الشرقية بالتالى بتقسيم بلاد المشرق العربى بين بريطانيا وفرنسا بعد نهاية الحرب الاولى حيث استولت فرنسا على سوريا ولبنان وفرضت بريطانيا سيطرتها على فلسطين والاردن والعراق . ولا ننسى هنا أن نشير الى وعد بلفور الذى اعطته بريطانيا سرّاً عام ١٩١٧ للصهيونية العالمية لانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ويضع فلسطين تحت ما سمي بالانتداب البريطانى ، أصبح من الممكن لبريطانيا أن تساعد الحركة الصهيونية فى إقامة كيان سياسى لها فى فلسطين على حساب العرب هناك .

ويلاحظ فى واقع الامر أن بريطانيا كانت أقوى الدول الاوربية الاستعمارية فى خلال القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الاولى . كما أنها تمكنت من خلال دبلوماسيتها فى الشرق الاوسط أن تحتفظ بوحدة الامبراطورية العثمانية لتؤجل تقسيمها حتى تبعد بذلك القوى الاخرى - وخاصة فرنسا وروسيا - عن هذه المنطقة الاستراتيجية . وبعد قيام حركة تركيا الفتاة ووقوفها بجانب المانيا فى الحرب الاولى .

ونسبة لحرص بريطانيا على المحافظة على مستعمراتها فى الهند والوصول لها عبر قناة السويس ، غيرت بريطانيا سياستها حيث قررت تقسيم الامبراطورية العثمانية بعد الحرب بحيث يكون لها النصيب الاكبر فى هذا التقسيم مع فرنسا . وبينما فعلت بريطانيا ذلك سرّاً ، كما حدث أيضاً فى وعد بلفور .

فأنها في نفس الوقت قد خدعت الشريف حسين في مكة من خلال المراسلات بينه وبين ماك ماهون حيث وعدت بريطانيا بمساعدة العرب في انشاء دولة عربية مستقلة بعد الحرب مقابل وقوفهم مع الحلفاء ضد المانيا . ولم يحدث ذلك بالطبع لانها كانت تخطط ، كما رأينا ، سرّاً لاقتسام البلاد العربية مع فرنسا بعد الحرب .

التكالب الاستعماري على أفريقيا :-

كان مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ نقطة البداية للسباق المسعور الذي عرف باسم التكالب على أفريقيا من قبل القوى الاوربية الاستعمارية . وبينما تم استعمار البلاد العربية في خلال فترة طويلة من الزمن ، نجد أن التقسيم والاحتلال الفعلي الاستعماري لأفريقيا قد تم في خلال عقد واحد فقط ، وذلك أيضا بعكس ما حدث في آسيا التي أمتد الاستعمار فيها في قطاع محدود وبعد فترة طويلة من الوقت . وبذلك تتميز أفريقيا بأن أغلبها قد وقع تحت السيطرة الاستعمارية في فترة وجيزة ، ولم تكن بها دولة مستقلة (شكلياً) سوى ليبيريا وذلك بجانب اثيوبيا .

وقد تمت المنافسة الاستعمارية على أفريقيا بين القوى الاوربية الكبرى (بريطانيا وفرنسا وألمانيا) من جهة والقوى الصغرى (البرتغال وبلجيكا وإيطاليا) من جهة أخرى ، وكان النصيب الأكبر بالطبع للقوى الكبرى خاصة بريطانيا وفرنسا نسبة لزعيم المانيا فيما بعد (الحرب العالمية الاولى) . وبينما توسعت فرنسا من الشمال الغربى باتجاه غرب أفريقيا ، نجد أن بريطانيا تحركت من الشمال الشرقى في مصر باتجاه النيل عبر السودان الى شرق أفريقيا (كينيا ويوغندا) ثم جنوب القارة عبر الروديسيين وحتى الكاب وفي غرب أفريقيا على ساحل الذهب (غانا ونيجيريا) . وركزت المانيا على توجو والكامرون وتنجانيقا وجنوب غرب أفريقيا بينما استقرت بلجيكا في الكونغو وسيطر البرتغال على موزمبيق وأنجولا .

أما إيطاليا فقد اقتسمت في مرحلة تالية الصومال (مع بريطانيا وفرنسا) وسيطرت على أرتيريا ثم ليبيا فيما بعد ، وبعدها غزت الحبشة في ثلاثينيات القرن العشرين فسقط بها آخر معقل مستقل في أفريقيا . وبعد الحرب العالمية الاولى ضمت تنجانيقا الى بريطانيا التي تقاسمت مع فرنسا مستعمرات المانيا نتيجة لهزيمتها في الحرب^(١٠) .

ويلاحظ أنه بالرغم من التنافس الاستعماري المحموم على أفريقيا إلا أن القوى الاوربية الاستعمارية قد نجحت في عملية التقسيم الاستعماري دون اللجوء للمواجهة العسكرية اذ التقت مصالحها المشتركة في الاستعمار وتغلبت بالتالى على الخلافات بالوسائل السلمية .

ولعل خير شاهد على ذلك كما حدث من مواجهة بين بريطانيا وفرنسا عند وصول الاخيرة الى فاشودة في جنوب السودان عقب دخول البريطانيين للسودان عام ١٨٨٨ حيث انتهى الامر بتراجع فرنسا وسلام من هذه المنطقة^(١١) . وأرادت بريطانيا أن تعطى نفسها بعد ذلك مبرراً شرعياً لحكم السودان فلجأت لعقد اتفاقية الحكم الثنائي على السودان مع مصر عام ١٨٩٩ .

والملاحظ في الواقع أن بريطانيا كانت في كثير من الأحيان تسعى قبل التدخل العسكري المباشر لأن تمهد للسيطرة الاستعمارية بواسطة جهات خاصة كالأفراد أو الشركات التجارية أو الجمعيات التبشيرية أو الاستيطان حتى يكون ذلك مبرراً بعد ذلك لسيطرتها السياسية بحجة الدفاع عن هذه المصالح . ولاشك أن هؤلاء المستوطنين والتجار والمبشرين كانوا يعملون كل في ميدانه لخلق مجموعات استعمارية تكون لها مؤسسات إدارية وقضائية ومالية مرتبطة بالوطن الأم . ويدل ذلك على تعدد أهداف الاستعمار المختلفة في شتى المجالات كما أشار لذلك الزعيم الأفريقي أحمد سكو توري رئيس غينيا حيث كتب عن أفريقيا والثورة أنه مهما يكن من تنوع أشكال التسلسل الإمبريالي إلى أفريقيا ، ومهما يكن من أمر تنوع أشكال الإدارة التي فرضتها قوى الاحتلال لتعزيز وضمان الاستغلال - ونعني بالقوة . القوى العسكرية ، وكذلك القوى الاقتصادية والمالية والثقافية والروحية ، فإن الاستعمار قد تميز قبل كل شيء بوقائع ثلاثة فرضت نفسها على أفريقيا :

الواقع الأول :-

أن أفريقيا قد حرمت فجأة وبشراسة من تسيير دفة مصيرها . فعندما تحولت البلدان الأفريقية إلى مستعمرات ، وجدت نفسها مجردة من سيادتها وحريتها وبالتالي من الممارسة الفعلية لحقها الطبيعي في حل مشاكل وجودها .

والواقع الثاني :-

هو السيطرة الأجنبية المركزة على استغلال شعوبنا وثرواتنا وعلى الاضطهاد الذي تمارسه في كافة الميادين : الاضطهاد السياسي ، الاضطهاد الثقافي ، الاضطهاد الإداري ... الخ .

أما الواقع الثالث :-

فهو للواقعين الأولين : أنه توقف تطورنا الخاص ونضوب منابع نمو حضاراتنا . ونستطيع هنا ، ونحن نقلب بين أيدينا مختلف طرق الاستعمار ، أن نتوقف عند الطريقة التي عرفناها وعشناها أعنى طريقة الاستعمار ، فهذا الاستعمار خصائص ، منها سعيه لصهر الشعوب المستعمرة في بوتقة حضارية وثقافية . بحيث تعتبر هذه الشعوب نفسها متبينة لقيم وحقائق الدولة الاستعمارية المسيطرة وحده (١٣) .

الحركات التحررية والاستغلال السياسي :-

لقد كان من الطبيعي أن يواجه مثل هذا الاستعمار برودة فعل مضادة من قبل الشعوب المستعمرة . ومن هنا برزت حركات التحرر الوطني بهدف القضاء على هذا الاستعمار وبالتالي الحصول على الاستقلال السياسي . وقد تنوعت أساليب هذه الحركات التجريبية بحسب أساليب الدول الاستعمارية وبحسب الظروف الداخلية للبلدان المستعمرة . ففي البلدان التي غلب عليها طابع العنف والقهر السياسي والعسكري كانت ردة الفعل التحررية عنيفة وقوية لأنها اعتمدت في المقام الأول على القوة والثورة المسلحة كما حدث مثلاً في الجزائر وكينيا وأنجولا وموزمبيق ، وكما يحدث اليوم

في فلسطين وجنوب أفريقيا . أما في البلدان التي حظيت ببعض الاستقرار السياسي فان حركاتها التحررية قد اعتمدت في المقام الاول على الاسلوب السلمى السياسى الا أن الكثير من هذه الحركات اضطرت في أكثر الاحيان الى استخدام وسائل متنوعة جمعت بين العمل السياسى والعسكرى والدبلوماسى . وهذا الجانب الاخير كان الغرض منه كسب تأييد الرأى العام العالمى من خلال المنظمات الدولية والاقليمية ، وكان لذلك دور هام في حصول بعض البلدان على استقلالها خاصة تلك التي كانت تحت نظام الحماية أو الانتداب أو الوصاية كما حدث مثلاً لتونس والمغرب والصومال^(١٤) .

ويلاحظ بالنسبة للبلدان العربية أنها وبسبب خيبة الامل في دولة الخلافة العثمانية التي قسمتها بريطانيا وفرنسا ، وبسبب السياسات الاستعمارية التي عملت على تمزيق وحدة هذه البلدان العربية ، رأت نفسها مضطرة الى اعتناق المذهب الاوربى الحديث القائم على فكرة « القومية » أى استقلال وسيادة كل دولة على حدة . ولهذا لجأ العرب الى تحقيق هذا الهدف من خلال الحركات الوطنية والثورية ضد الوجود الاستعماري والتي حدثت تقريباً في جميع أنحاء الوطن العربى من مشرقه الى مغربه . ومن أمثلة ذلك ثورتا ١٩١٩ و ١٩٥٢ في مصر وثورة ١٩٢٤ في السودان اضافة لثورات سوريا ولبنان والعراق وفلسطين ودول الخليج (ومنها عدن) والجنوب العربى وليبيا (عمر المختار) والجزائر (جبهة التحرير الجزائرية) والمغرب (حزب الريف)^(١٥) . ويلاحظ في معظم هذه الحركات بعد فشل مرحلة المقاومة المسلحة الاولى والتي كثيراً ما ارتبطت بالجهاد ، أنها قامت من خلال قيادة النخبة المثقفة لها ، باستخدام اسلحة المستعمر لتوظيفها في النضال ضده . ولذلك قامت الجمعيات الادبية والثقافية التي انتهت مع ازدياد الوعي السياسى بقيام الاحزاب السياسية كمرحلة حاسمة للوصول الى الاستقلال ، كما حدث مثلاً في دول المغرب العربى^(١٦) . وفي السودان (حيث كان لمؤتمر الخريجين الذى تأسس عام ١٩٣٨ دور بارز في الحركة الوطنية السودانية التي قويت شوكتها مع قرب نهاية الحرب العالمية الثانية بقيام الاحزاب السياسية ذات الهدف المشترك وهو الحصول على الاستقلال)^(١٧) .

وبالنسبة لحصول البلدان العربية على استقلالها السياسى فان ذلك قد تم على مرحلة زمنية تمتد لحوالى ثلاثين عاماً . وكانت نقطة البداية في هذا الطريق هى سوريا ولبنان . وقد وضعتا بعد الحرب الاولى وقيام عصبة الامم تحت الانتداب الفرنسى في المجموعة الاولى من الدول الاكثر تطوراً ، وحصلتا على استقلالهما بعد انسحاب القوات الفرنسية عقب الحرب الثانية عام ١٩٤٦ بينما تقرر مصير فلسطين بقرار الامم المتحدة الخاص بالتقسيم عام ١٩٤٧ . ونسبة لهزيمة ايطاليا في تلك الحرب وموافقة الامم المتحدة على استقلال ليبيا ، أعلن هذا الاستقلال رسمياً عام ١٩٥١ . وتأكد استقلال مصر السياسى بعد انسحاب القوات البريطانية عام ١٩٥٤ بينما حصل كل من السودان والمغرب وتونس على الاستقلال عام ١٩٥٦ ، وذلك بعد مؤتمر باندونج الذى عقد عام ١٩٥٥ . وتم بعد ذلك اجلاء القوات البريطانية عن الاردن في عام ١٩٥٧ بينما تأكد استقلال العراق عقب ثورة يوليو عام ١٩٥٨ (والتي ترتب عليها خروج العراق من حلف بغداد) وأعلنت اليمن عن قيام الجمهورية العربية اليمنية

بعد ثورة ١٩٦٢ وهو نفس العام الذى حصلت فيه الجزائر على استقلالها بعد حرب دامت سبع سنوات ضد المستعمر الفرنسى . وكان الصومال قد حصل على استقلاله بواسطة الامم المتحدة منذ عام ١٩٦٠ وهو نفس العام الذى قررت فيه فرنسا اعطاء موريتانيا استقلالها السياسى . وانتهت آخر حلقة فى تصفية الاستعمار التقليدى فى العالم العربى بقرار بريطانيا الانسحاب من بلدان الخليج العربى عام ١٩٧١^(١٨) . بعد انسحابها من الجنوب العربى (عدن أو اليمن الجنوبية) عام ١٩٦٧ ، بينما لم تسحب فرنسا من مستعمرة جيبوتى الا فى عام ١٩٧٧ .

أما بالنسبة للقارة الافريقية فمن المهم أن نلاحظ أن فترة العشرين عاماً التى تلت قيام الحرب العالمية الثانية ، وبالتحديد من ١٩٤٠ الى ١٩٦٠ ، لم تعبر فقط عن ازدياد قوة الحركات التحررية الافريقية وصولاً بها للاستقلال السياسى ، بل أنها كانت أيضاً أكثر فترة تميزت بالحركة والعمل بالنسبة لتاريخ الاستعمار الاوروبى فى أفريقيا . فبينما ظهر قادة أفارقة استخدموا اسلحة المستعمر وأسسوا أحزاباً سياسية وطنية ، كشف المستعمرون البريطانيون والفرنسيون انشطتهم الاستعمارية ووصلوا بعد نهاية الحرب الثانية الى قناعة بأن استعمارهم المباشر لا يمكن أن يدوم طويلاً ، ودعاهم ذلك بالتالى الى اقامة مؤسسات سياسية بهدف تطبيق الحكم غير المباشر أو الحكم الذاتى كمرحلة لا بد منها قبل تقرير المصير والاستقلال السياسى^(١٩) وكانت نقطة البداية فى ذلك الاتجاه ما حدث فى ساحل الذهب (غانا) والذى حصل بقيادة نكروما على استقلاله عام ١٩٥٧ .

وتبعته نيجيريا بعد ثلاث سنوات (١٩٦٠) بسبب انقساماتها الداخلية الى ثلاث مجموعات عرقية رئيسية (الهوسا فى الشمال والايبو فى الشرق واليوروبا فى الغرب) . وأعقب ذلك استقلال سيراليون عام ١٩٦١ وجامبيا عام ١٩٦٥ فأنتهى بذلك الاستعمار البريطانى فى غرب أفريقيا بينما تعثر الحال فى شرق أفريقيا حيث نتج عن الاستعمار الاستيطانى فى كينيا نشوب حركة عنيفة من قبل الكيكويو عرفت باسم حركة الماو الماو عام ١٩٥١ ، كما حدثت أيضاً حركة مشابهة فى يوغندا تمثلت فى مملكة يوغندا . وحصلت تنجانيقا بقيادة نايريرى على استقلالها فى نهاية ١٩٦١ بينما تمت تصفية الاستعمار البريطانى فى شرق أفريقيا عام ١٩٦٣ بعد استقلال يوغندا (بقيادة أبوتى) وكينيا (بقيادة كينيا) وزنجبار (التى كونت فيما بعد مع تنجانيقا دولة تنزانيا^(٢٠)) وذلك اضافة الى نياسالاند (ملاوى) وروديسيا الشمالية (زامبيا) .

وفى انحصار المستعمرات الفرنسية فى أفريقيا والتى ركز فيها الفرنسيون على السيطرة الثقافية الكاملة فيما عرف بسياسة الادماج مع الوطن الام ، نلاحظ أن رد الفعل الافريقى قد استخدم نفس السلاح لاثبات الشخصية الافريقية الحضارية ، كما وضع مثلاً من اشعار وكتابات سنقور فى السنغال عن مفهوم الزنجية . ولكن فرنسا أرادت استمرار الابقاء على مستعمراتها فى اطار دولة عظمى عرفت بأسم الاتحاد الفرنسى الذى عدلته فرنسا بعد ذلك الى نظام أضعف (كونفدرالى) عرف بأسم المجموعة الفرنسية وهى أقرب لنظام الكومونولث البريطانى . ووافقت جميع المستعمرات الفرنسية على دعوة الجنرال ديغول عام ١٩٥٨ لتكوين هذه المجموعة الفرنسية ما عدا غينيا بقيادة سيكوتورى حيث

تلك المنطقة العربية^(٢٤) . ولا يخفى على أحد اليوم أن ما يحدث في لبنان منذ سنوات من حرب بين الميلشيات هو في الواقع نتائج للسياسة الفرنسية التي جزأت الطوائف الدينية في لبنان حيث ميزت بين المارونيين والدروز والسنة والشيعية وابتدعت نظاماً سياسياً معقداً على أساس هذه الطوائف الدينية . ويضاف الى ذلك سياسة التفرقة التي طبقتها فرنسا في دول المغرب العربي بين العرب والبربر منذ أن اتت بما عرف بأسم الظهير البربري في المغرب الاقصى (مراكش سابقاً) في بداية الثلاثينيات مما دفع الحركة الوطنية المغربية لرفض هذه السياسة باعتبارها سياسة تجزئة للمسلمين وللتراب المغربي^(٢٥) . ولا زالت الجزائر تعاني من هذه المشكلة في منطقة القبائل القريبة من الجزائر العاصمة نتيجة للسياسة الاستعمارية الفرنسية التي شجعت عناصر البربر على التمسك بالتباين العرقي والثقافي وذلك بالرغم من تمازج هذه العناصر مع العرب في اطار الاسلام والحركة الوطنية الجزائرية .

وتجدر الاشارة أيضاً الى التجزئة الكبرى التي نظمها الاستعمار بين المشرق والمغرب حيث وضعت ايطاليا في ليبيا كحاجز لفصل المشرق الخاضع للاستعمار البريطاني عن المغرب الذي سيطرت عليه فرنسا - وقد سعت الدولتان الاستعماريتان - بريطانيا وفرنسا - لمنع قيام اتصالات بين المشرق والمغرب حتى لا تحدث وحدة قومية بينهما تهدد الوجود الاستعماري في الوطن العربي ، وقامت ايطاليا كذلك بنفس سياسة التجزئة داخل ليبيا لاثارة النزعات الاقليمية مما أدى لقيام دولة اتحادية في ليبيا بعد الاستقلال عام ١٩٥١ ، كما حدث أيضاً نفس الشيء في نيجيريا عام ١٩٦٠ نتيجة لسياسة التجزئة البريطانية التي طبقها أيضاً في السودان وجعلت جزءاً من الجنوبيين يطالبون حتى اليوم بدولة اتحادية (فدرالية) . ولكن بالرغم من سياسة التجزئة الاستعمارية بين المشرق والمغرب فان ليبيا كانت حلقة الوصل التي انتقلت عبرها الحركة الاصلاحية السلفية بزعامه جمال الدين الافغانى ومحمد عبده من المشرق الى المغرب العربي كما أن ليبيا كانت مقر اجتماعات المجلس الوطني للثورة الجزائرية حيث وقع فيها ميثاق طرابلس في مارس عام ١٩٦٢ . بينما كونت في القاهرة منذ عام ١٩٤٨ لجنة تحرير المغرب العربي من الحركات الوطنية بهدف التحرر من الاستعمار الفرنسي وبمساعدة الجامعة العربية التي تأسست عام ١٩٤٥ في القاهرة^(٢٦) .

واذا كان الاستعمار التقليدي الذي اتبع سياسة التجزئة قد سعى لفصل المشرق والعربي عن المغرب العربي ، فإنه أيضاً قد اتبع هذه السياسة في داخل منطقتي القرن الافريقي والمغرب الاقصى . وقد ظهرت الاهمية الاستراتيجية للقرن الافريقي -ى بعد افتتاح قناة السويس في نوفمبر ١٨٦٩ مما أدى لتنافس ثلاث دول استعمارية هي بريطانيا وفرنسا وايطاليا حيث احتلت بريطانيا شرق القرن الافريقي وأخذت جزءاً من الصومال ، واتخذت فرنسا لنفسها محمية في ميناء جيبوتي ، بينما استولت ايطاليا على ما تبقى من سواحل المنطقة ممثلاً في بقية الصومال واقليم أرتريا . وفي عهد موسوليني قامت ايطاليا بغزو اثيوبيا عام ١٩٣٦ وضمت اقليم اوغادين (الصومال الغربي) الى الصومال الايطالي ، ولكن وبعد هزيمة ايطاليا عام ١٩٤١ ، وضعت كل من أرتريا وأوغادين تحت الادارة البريانية التي حلت محلها اثيوبيا فيما بعد . وتقرر بعد الحرب مصير كل من الصومال وأرتريا بواسطة الامم المتحدة الا أن أرتريا

ضمت رسمياً لاثيوبيا عام ١٩٦٢ مما أثار حرب تحرير أرترية . وأعلنت الصومال بعد استقلالها عام ١٩٦٠ أن الاستعمار كان قد قسمها الى خمسة أجزاء وأن الصومال الطبيعية تضم اضافة الى الصومال البريطاني والصومال الايطالي وجيبوتي اقليمى أوغادين وشمال شرق كينيا . وهذا ما أثار قضايا الحدود بين البلدان التى خضعت للاستعمار من قبل مما أدى أحيانا لنشوب حروب بينها كما حدث بين الصومال واثيوبيا فى عام ١٩٦٤ وكذلك فى ٧٧ - ١٩٧٨ .

وبالنسبة للمغرب الأقصى نجد أن المغاربة يرون أن بلادهم قد قسمت الى عشر مناطق استعمارية :

الجزء الجنوبي (فرنسا) ، الجزء الشمالى (اسبانيا) ، طنجة (ادارة دولية) ، سبتة ومليلة (اسبانيا) ، موريتانيا (فرنسا) ، افنى (اسبانيا) ، طرفاية (اسبانيا) ، الساقية الحمراء (اسبانيا) ، وادى الذهب (اسبانيا) منطقة تندوف الحدودية (أضيفت للجزائر بواسطة فرنسا) . وقد حدثت حرب على الحدود بين الجزائر والمغرب عام ١٩٦٣ ، كما دخلت المغرب فى مواجهة عسكرية غير مباشرة مع الجزائر بعد انسحاب اسبانيا من الصحراء الغربية (الساقية الحمراء ووادى - الذهب) منذ عام ١٩٧٥ ، وترى المغرب أنه لم يبق لها سوى سبتة ومليلة .

ولا شك أن كل هذه المشاكل التى يعانى منها العالم العربى اليوم ، مما يعرقل عملية الوحدة السياسية للوطن العربى ، تجد جذورها فى سياسة التجزئة الاستعمارية التى قصدت تفتيت وحدة البلدان العربية . وقد بدر الاستعمار التقليدى ما هو أخطر من ذلك فى الوطن العربى حيث أنشأ فى فلسطين كيانا استعماريا استيطانيا مازال يسعى أيضا لقميوق وحدة العرب بشتى الوسائل وبتأييد من الاستعمار الجديد .

الاستعمار الاستيطاني فى فلسطين : الصهيونية :-

تزعم الصهيونية أنها حركة تحرير وطنية وقومية وأنها سعت بذلك لانشاء وطن قومى أو دولة لليهود ، والحقيقة أنها حركة سياسية استعمارية تقنعت بالدين وظهرت فى فترة التكالب الاستعماري على أفريقيا بعد مؤتمر برلين حيث أن مؤسسها ثيود ورهترزل . الذى كون المنظمة الصهيونية فى مؤتمر بال بسويسرا عام ١٨٩٧ ، قد دعا لقيام دولة يهودية . ولما رفض السلطان العثمانى عبد الحميد اقامة دولة لليهود فى فلسطين ، لجأت المنظمة الصهيونية الى بريطانيا حتى حصلا على وعد بلفور عام ١٩١٧ . وقامت اسرائيل بالتالى على أساس الاستعمار الاستيطاني فى فلسطين بواسطة الهجرة المنظمة وغير المنظمة لشراء الاراضى .

ولم تكن لذلك حركة تحرير ضد الوجود الاستعماري كما فعل عرب فلسطين ضد الاستعمار البريطاني^(٢٧) . كما لم تكن حركة قومية لان اليهود لا يشكلون قومية واحدة بل هم اشقات من بلاد مختلفة ولا تجمعهم سوى العقيدة الدينية اليهودية .

كذلك تزعم الصهيونية أن أيولوجيتها قد نشأت كرد فعل لمعاداة السامية التى يعتبرونها مرتبطة

بالصراع الاجتماعي والسياسي الدائر في المجتمع ، وأن اللاسامية أبدية طالما كان لليهود وجود بين قوميات أخرى ، إذ أن العداء العنصري والكراهية بين الشعوب إنما يتلئمان مع المجتمع البشري ، ويعيشان في التكوين النفسي^(٢٨) .

والواقع أن الصهيونية في تعريفها الحقيقي هي الحقد المترسب في نفوس أصحابها بسبب التشريد والتشتت الذي أصاب اليهود وبسبب الاضطهاد الديني (بعد اتهام الكنيسة لهم بقتل المسيح عليه السلام) والاضطهاد السياسي (كما وضع من قضية الضابط اليهودي درايفوس في فرنسا) وأخيراً الاضطهاد العنصري (من قبل النازية الهتلرية) والذي تعرضوا له في أوروبا .

ولهذا جاءت الصهيونية وهي تحقد على الانسانية كلها وعلى أصحاب الاديان الاخرى وخاصة المسلمين بالرغم من تسامح الاسلام والمسلمين مع اليهود وحمايتهم من الاضطهاد الاوربي الذي عرف باسم اللاسامية . ولهذا سعت الصهيونية لاقامة دولة توسعية تنطلق من أرض العرب والمسلمين نحو السيطرة على العالم واستغلال ثرواته ، كما تهدف في نفس الوقت لان تكون هذه الدولة يهودية عنصرية لا تختلف في مضمونها عن الدولة النازية الهتلرية^(٢٩) .

وليس من قبيل المبالغة أن تشبه اسرائيل بالدولة النازية فهناك في الحقيقة أوجه كثيرة للمقارنة بينها يمكن تلخيصها في الآتي^(٣٠) .

١ - الصهيونية استعمار عنصري مطلق لأنها تنادى بتفوق الجنس اليهودي على أساس شعار شعب الله المختار وذلك على غرار مناداة النازية بسيادة الجنس الارى وبأن تكون المانيا فوق الجميع .

٢ - الصهيونية هي استعمار توسعي في أساسه حيث أن ما ورد في خريطة اسرائيل الكبرى، وهو من النيل الى الفرات أرضك يا اسرائيل هو شعار الامبراطورية الصهيونية الموعودة للسيطرة على العالم ، كما كان حلم النازيين في الماضي باقامة امبراطورية لهم في أوروبا لتكون قاعدة للسيطرة على العالم . واذا كانت اسرائيل تستخدم اليوم ذريعة الحدود الامنة للتوسع العدواني الاستراتيجي والاقتصادي (منذ حرب ١٩٤٨ ثم ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ وحتى ١٩٨٢ في لبنان) ، فإن المانيا النازية قد استخدمت أيضاً من قبل (عبارة المجال الحيوي للشعب الالماني) .

٣ - الصهيونية استعمار استيطاني حيث ركزت على احتلال الارض بالاسكان ، ولهذا سعت لابطاد الفلسطينيين (أمثال مذبحه دير ياسين في فلسطين ومذابح صبرا وشاتيلا في لبنان) أو طردهم من أراضيهم فأصبحوا لاجئين كما فعلت النازية في مخططها لابطاد وتشريد أهالي البلاد الاصليين ليحل الالمان محلهم وذلك على أساس (سياسة كسب الارض) .

٤ - الصهيونية استعمار استغلالي إذ انها تسعى لاستتراف طاقات الفلسطينيين العرب الموجودين في الاراضي المحتلة لمصلحة اقتصادها ومن أجل رفاهية اليهود على حساب العرب^(٣١) . وذلك كما فعلت النازية عندما اعتبرت بولندا مخزناً احتياطياً دائماً لامدادها بالعمال اللازمين للاموال الشاقة .

٥ - الصهيونية استعمار ادماجى حيث تسعى اسرائيل لصهيئة الاراضى العربية المحتلة فى الضفة الغربية والجولان والقدس وذلك من خلال سياسة التدمير للمدن العربية تحت ذريعة الضربات التأديبية رداً على العمليات الفدائية الفلسطينية ، وهذا ما فعلته النازية أيضا فى سعيها لجرمنة أقاليم شرق أوروبا .

٦ - الصهيونية استعمار استراتيجى يقوم على العسكرية حيث تحولت اسرائيل الى قاعدة وترسانة عسكرية فى سياستها الاقتصادية بشكل يخدم اطماعها التوسعية ، كما أن سياسة (اقتصاد الحرب) كانت هى السياسة التى اعتمدتها النازية فى مشاريعها .

٧ - الصهيونية استعمار معاد للتنظيم الدولى حيث تجاوز الصهيانة فى اسرائيل كل الاعراف والقوانين الدولية بدأ بخرق ميثاق الامم المتحدة وقراراتها منذ تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ ، وذلك كما خالفت النازية من قبل كل الاعراف والقوانين الدولية فى مسلكها وسياساتها .

٨ - الصهيونية استعمار حضارى يرمى الى تدمير الحضارة العربية الاسلامية لتحل محلها الحضارة العلمانية الغربية التى سارت عليها اسرائيل من خلال سيطرة اليهود الغربيين (الاشكناز) على اليهود الشرقيين (السفارديم) حيث تزعم اسرائيل حمل رسالة الحضارة والتطور فى صحراء الرجعية العربية ، وهذا ما كانت تدعيه ايضا ألمانيا النازية فى نشر رسالتها الايدولوجية للعالم الخارجى .

وخلاصة الامر ان الصهيونية ممثلة فى اسرائيل هى تجسيد للاستعمار المتعدد الاغراض وهو استعمار بالاصالة والوكالة فى نفس الوقت حيث أن اسرائيل قامت واقامت بفعل ولحساب نفسها والصهيونية العالمية ، وكذلك قامت واقامت بفعل ولحساب الاستعمار العالمى الذى تضايقت الصهيونية العالمية الى حد التماثل مع خططه ومصالحه . واسرائيل كجسم استعمارى واقع تمثل استعماراً قديماً ، ولكنها وبدور الاستعمار العالمى فى كيانها وأمنها تمثل اداة وقاعدة للاستعمار الجديد ، وقد التقي فيها بالتالى الاستعمار القديم والجديد بدون صراع أو تنافر اذ كانت بريطانيا (الاستعمار القديم) هى التى اقامتها ، ولكنها سلبتها بعد ذلك طواعية لوصاية امريكا (الاستعمار الجديد) التى تمارس عليها اسرائيل ولحساب الصهيونية العالمية نفوذاً وضغطاً لا يتناسب مع الولايات المتحدة (كأحدى الدولتين الكبيرتين) . وعلى كل فان اسرائيل فى نهاية الامر اخطر تحديات الاستعمار فى التاريخ العربى . ، ولعلها أعلى مراحل فى الوطن العربى ، كما أن الصهيونية العالمية هى اعلى مراحل الامبريالية العالمية (٣٢) . واذا كانت اسرائيل هى الشركة التى تؤرق العالم العربى ، فإن جنوب أفريقيا العنصرية هى أيضا شركة أخرى لا تؤرق القارة الافريقية فحسب بل والعالم الثالث بأكمله .

الاستعمار الاستيطانى فى جنوب أفريقيا : نظام الفصل العنصرى :-

خضعت جنوب افريقيا تاريخياً للاستعمار الهولندى (١٦٥٢ - ١٨٠٦) . ثم اصبحت بعد ذلك تحت السيطرة البريطانية قبل أن تعلن الاقلية البيضاء استقلالها بعد حرب البوير وقيام اتحاد جنوب أفريقيا فى عام ١٩١٠ . ولم تكن تلك الاقلية البيضاء تزيد عن ثلث السكان ولكنها أمتلكت ٨٧ ٪

من الأراض تاركة ١٣ ٪ فقط من الاراضى للأفارقة الذين يشكلون أكثر من ثلثى السكان . ومنذ وصول الحزب الوطنى للسلطة عام ١٩٤٨ ، ازدادت قوانين الفصل العنصرى (الابرتايد فى لغة الافريكان) للتمييز بين البيض والسود . ونسبة للنقد الذى وجه للنظام العنصرى ، انسحبت حكومة جنوب أفريقيا من الكومونولث واعلنت نظام الجمهورية البرلمانية بموجب دستور ١٩٦١ وبدون اشراك للاغلبية السوداء فى الحكم مما أدى ، اضافة لقوانين الفصل العنصرى ، الى مقاومة الافارقة للحكم العنصرى منذ ١٩٥٩ والى مذبحه شاريقيا المشهورة ١٩٦٠ ضد السود الذين استمروا فى مقاومتهم منذ ذلك التاريخ من خلال أسلوب القوة والعنف (خاصة بعد سجن الزعيم نلسون مانديلا عام ١٩٦٥) .

أما بالنسبة لاقليم جنوب غرب أفريقيا - ناميبيا - فقد خضع للاستعمار الالمانى بعد مؤتمر برلين وحتى هزيمة المانيا فى الحرب العالمية الاولى حيث وضع هذا الاقليم فى عام ١٩٢٠ تحت انتداب حكومة جنوب أفريقيا^(٣٤) . وفى عام ١٩٤٦ رفضت حكومة جنوب افريقيا أن تضع اقليم جنوب غرب افريقيا تحت نظام الوصاية الدولية ، وبالرغم من قرارات الامم المتحدة ، المتعددة حول مسئوليتها عن هذا الاقليم ، فانه ما يزال يخضع فعليا لسيطرة حكومة بريتوريا العنصرية التى ضمت هذا الاقليم لجنوب افريقيا وطبقت عليه سياسة الفصل العنصرى ، كما أنها أخضعت لتبعيتها الدول الافريقية الثلاث المجاورة والتى حصلت على استقلالها من بريطانيا وهى باسوتولاند (والتى اصبحت ليسوتو بعد استقلالها عام ١٩٦٦) وبسوتوانا لاند (التى اصبحت بتسوانا فى نفس العام) وسوازيلاند (عم ١٩٦٨)^(٣٥) .

ويلاحظ فى نظام الفصل العنصرى أن القول بأن البيض والسود مختلفان وأن السود ليسوا كاليبيض هو أساس هذا النظام ، وعليه فإن اختلاف العنصرين معناه فى هذه الحالة الا يتوقعا المساواة فى المعاملة اذ ان العنصر الاسود يعتبر أدنى مرتبة من العنصر الابيض ولذلك فانه ليس هناك الا تلك العلاقات التى تكون بين السيد وخادمه ، فالبيض وحدهم هم أصحاب المقاعد فى الجمعية التشريعية ويتمتعون باحتكار المنافسات والتصويت واعداد الميزانية والادارة والتخطيط واتخاذ القرارات ، وهم الذين يشكلون سياسة كل شئ فى أفريقيا الجنوبية الغربية لصالحهم^(٣٦) . كما هو الحال ايضا فى جنوب افريقيا التى تسيطر على هذا الاقليم الذى شهد بعد الغزو الالمانى خيانة ميثاق الانتداب ثم التفرقة العنصرية من قبل حكومة أفريقيا . وبذلك يكون الاستعمار فى جنوب أفريقيا ، والذى أصبح أيضا استعماراً توسعياً حيث فرض سيطرته على اقليم ناميبيا بقوة السلاح وبنفس اسلوب الارهاب والقمع الذى تمارسه اسرائيل فى الاراضى العربية المحتلة . وكما هو الحال بالنسبة لاسرائيل فان الاستعمار الاستيطانى العنصرى التوسعى لم يكن يستمر حتى اليوم لولا ذلك الدعم الذى يجده من الامبريالية العالمية التى تستفيد من استمرار هذا الوضع وتسعى لخدمة مصالحها الذاتية على حساب الشعوب الأخرى . وهنا ، وكشأن اسرائيل التى من الطبيعى أن تكون لها صلات وثيقة وحميمة وتعاون هام مع حكومة جنوب افريقيا العنصرية ، نجد مرة أخرى ذلك اللقاء بين الاستعمارين القديم والحديث مما يقودنا للحديث عن الاستعمار الجديد .

الاستعمار الجديد :-

تميز الوضع الدولي بعد الحرب العالمية الثانية بظهور قوتين جديدتين عملاقتين (ماموث) - هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي .

وبالرغم من التناقضات الجذرية بينها في الموقع والاستراتيجية والايولوجية ، الا أن بينهما مشابهاة عديدة فكلاهما دولة حديثة النشأة وقوة عظمى أشد حداثة في الساحة الدولية ، كما أن لكل منهما مساحة ضخمة واعداد متقاربة من السكان تقريباً ، وكانا في عزلة طويلة وبدون تاريخ استعماري يمكن مقارنته بالاستعمار الاوربي القديم . ومع ذلك فإن كلا منهما يتهم الآخر بممارسة الاستعمار بطريقة أو بأخرى . فالاتحاد السوفيتي ورث بعد ثورة ١٩١٧ امبراطورية القيصرية كما هي ولم يتخل عن الاقاليم التي عدت مستعمرات كاواسط اسيا ، بل أكثر من هذا ضم فيما بعد مزيداً من الاراضي . أما الولايات المتحدة فقد ضمت عديداً من الجزر في المحيط الهادي وفي البحر الكاريبي بالغزو حينا وبالشراء حينا آخر . واذا كان الاتحاد السوفيتي يتهم الولايات المتحدة في هذا بالاستعمار الاستراتيجي وكذلك الاستعمار الاقتصادي في العالم الخارجي كبديل عن الاستعمار السياسي المباشر فإن الولايات المتحدة ترد له الاتهام (بالاستعمار المذهبي) أو الايديولوجي الذي يجتني من السطح ليعمل سراً هداماً وتخريباً (٢٧) .

ويلاحظ أيضاً بالتالي أن الوضع الدولي قد تميز بظهور (القطبية الثنائية) في شكل كتلتين كبيرتين تنقسمان العالم كعمسكين مسلحين هما الكتلة الشرقية الشيوعية والكتلة الغربية الرأسمالية ، ودخل معها العالم في مرحلة العصر النووي وما عرف باسم (توازن الرعب النووي) . ولا شك أن التنافس الصريح والخفي بين هذين العسكرين بقيادة الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، لكسب المزيد من التفوق ولتأمين المصالح الاستراتيجية والاقتصادية والايديولوجية لكل منها ، قد أدى بالتالي الى بروز ظاهرة الاستعمار الجديد الذي يسعى كما ذكرنا سابقاً ، لنفس أهداف الاستعمار القديم ولكن بوسائل خفية وغير مباشرة . وقد لاحظنا من قبل كيف ان الاستعمار القديم قد مهد بسياساته المختلفة والرامية الى اضعاف البلدان المستعمرة والى خلق كيانات استيطانية ، لا يجاد التربة الملائمة لنشاطات الاستعمار الجديد .

والحقيقة أن الاستعمار القديم قد طرح قبل خروجه مسألة (الفراغ) في البلدان المستعمرة بعد حصولها على الاستقلال وكأنه يتحدث في ذلك عن أقاليم بدون سكان فقد طرح الاستعمار قضيتين تشابهان هما : هل يترك الخروج الابيض (فراغاً) حضارياً أو اقتصادياً خطيراً في المستعمرات المتحررة ؟ أترك كذلك (فراغاً) سياسياً يهدد التوازن الدولي ؟ وقد كان هدف الاستعمار في ذلك هو محاولة اضعاف تيار التحرر في تلك المستعمرات لكي تشعر بأنها لا تستطيع الاستغناء عن المستعمرين في المجالات السياسية والحضارية والاقتصادية . وكذلك لجأ الاستعمار متعمداً قبل خروجه الى تجزئة وتفتيت مناطق السابقة حتى يضمن وراءه نسيجاً سياسياً ضعيفاً ومتهاكاً وذلك بالرغم من أن الاستعمار سعى أيضاً بشتى الطرق لفرض اتحادات مصطنعة وتجمعات اقليمية مفتعلة ضد ارادة

الوطنيين . ومن أمثلة ذلك اتحاد وسط أفريقيا ومشروع الهلال الخصيب ومشاريع اتحادات شرق أفريقيا وغرب أفريقيا . ويتضح من هذه البلقنة المخططة بروز أول مظهر من مظاهر الاستعمار الحديث (٣٨) .

ولابد من الملاحظة هنا أن الولايات المتحدة قد سعت بعد الحرب العالمية الثانية الى أن تحل محل بريطانيا وفرنسا في المناطق التي تخضع لسيطرتها الاستعمارية . وبما أن الولايات المتحدة كانت تنفرد وحدها بالسلاح الذرى حتى عام ١٩٤٩ مينا كانت الحرب الباردة والصراع المذهبي على أشدهما بينها وبين الاتحاد السوفيتي ، فأنها سعت في ظل هذه الظروف لوضع سياسة الاحتواء أو التطويق الأمريكية على يد جورج كينان تحت سيطرة ادارة الرئيس ترومان عام ١٩٤٧ . وكانت تهدف السياسة الى تجميد توزيع الكتلة الشرقية وعدم توغلها خارج (الستار الحديدي) كحد أدنى ، وربما محاصرتها (تحريرها) في النهاية كحد أقصى (٣٩) .

ولهذا وقعت الولايات المتحدة مع تركيا واليونان اتفاقية لمنع توسع النفوذ الشيوعي في داخلها ، كما قدمت بعد ذلك من خلال مشروع مساعدات اقتصادية لدول أوروبا مينا سعت بعد انشاء حلف الاطلنطي عام ١٩٤٩ لاقامة أحلاف أقليمية لتطويق الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية : حلف بغداد والحلف المركزى في الشرق الاوسط اضافة لمنظمة حلف دفاع الشرق الاوسط ، ثم حلف جنوب شرق آسيا اضافة لوجود الولايات المتحدة في اليابان وكوريا الجنوبية والصين (فورموزا) وتايوان .

ولكن سياسات الولايات المتحدة لم تنجح في فترة الخمسينيات حيث فشلت سياسة الاحتواء في اخرب الكورية (٥١ - ١٩٥٢) ، وقامت مصر في عهد عبد الناصر بكسر احتكار السلاح من خلال (صفقة الاسلحة) مع الكتلة الشرقية (تشيكوسلوفاكيا) عام ١٩٥٥ (٤٠) كما فشلت سياسة الاحلاف الاقليمية بعد ثورة العراق عام ١٩٥٨ . وقد تحولت الولايات المتحدة في الستينات بسبب انحسار نفوذها بالمد الثورى في العالم الثالث ، الى قوة عدوانية جعلت من نفسها (رجل بوليس العالم) . وجعلت هدفها أن تفرض سلامها ، السلام الأمريكى ، على العالم . فشهدت الجبهة الافريقية والآسيوية مدأ استعمارياً متصلاً وكاسحاً من غانا وغينيا وحتى فيتنام واندونيسيا ، ومن مصر حتى الهند ، وذلك بهدف تصفية سياسة عدم الانحياز بسلاح الاستعمار الجديد (٤١) . واستفادت في ذلك من سياسة (التعايش السلمى) مع الاتحاد السوفيتي .

وكما تراوحت (امبريالية البانكى) في امريكا اللاتينية (حيث طبق مبدأ مونرو منذ ١٨٢٣) بين سياسة العصا الغليظة وحسن الجوار ، تراوحت سياسة الولايات المتحدة في العالم الاسيوى الافريقى بين الاغراءات المادية والقوة : بين سياسة المساعدات والقروض والمنح وبين مؤامرات الخبايا والنقلابات والغزو من الداخل حيث شهدت افريقيا وحدها مثلاً ١٢ انقلاباً في عام ١٩٦٦ . وعندما لم تنجح سياسة المعونات أو الانقلابات ، كانت الولايات المتحدة تلجأ الى سياسة الضغط الاقتصادى والتجويع والحرب النفسية والحملات الدعائية دائماً الى العدوان المسلح المقنع أحياناً وذلك حسب ما تقتضيه الظروف . فقد وقفت عند الضغط الاقتصادى في حالة الهند مثلاً ، بينما وصلت الى حد

العدوان العسكرى المقنع فى الشرق العربى حيث تخفت النجمة الخماسية (الولايات المتحدة) وراء النجمة السداسية (اسرائيل) فى الحرب العربية - الاسرائيلية . وأخيراً فان الولايات المتحدة بتوسيعها لمبدأ منرو من خلال مبدأ ترومان ومبدأ ايزنهاور وخطة جونسون الاسيوسية ، فانها تبدو قد لوحت بأنها تعتبر كل العالم خارج المعسكر الشرقى (فراغاً) ضحماً وأن (عب الرجل الأمريكى) هو مل هذا الفراغ . ومهما يكن رأى ، فالامر المؤكد أن الولايات المتحدة قد أصبحت معادية فى تلك الفترة للعالم الثالث وان المواجهة بينها صارت مبارزة مباشرة بين الاستعمار الجديد وحركة عدم الانحياز التى تأسست فى مؤتمر بلغراد عام (١٩٦١) على وجه التحديد ، وهى مواجهة أبعد ما تكون عن التكافؤ أو العدالة^(٤٢) .

ويلاحظ فى نهاية هذا السرد العام عن بروز ظاهرة الاستعمار الجديد فى العالم الثالث أنه بينما ولد التعايش السلمى^(٤٣) بين الكتلتين بعد أزمة كوبا فى أوائل الستينات نجد أن (الوفاق الدولى) قد ارتبط بكارثة حرب فيتنام فى أوائل السبعينات ، أى أن كليهما قد ولد فى اطار الحرب الباردة . وقد جاء (الوفاق) كرد مشترك من القطبين على انقسام الكتلة (الوحدة الاوربية من جهة والصين الشعبية من جهة أخرى) وعلى وجود مجموعة دول عدم الانحياز فى نفس الوقت وعليه فالوفاق يعنى فى حقيقة الامر التفاهم بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على الايداع صراعات مع الآخرين تؤدى الى الصدام المباشر بينهما . ولهذا ذهب الكثيرون فى العالم الثالث ، خاصة فى الصين ، الى اعتباره (تواطؤ) يستهدف تقسيم العالم الثالث الى مناطق نفوذ جديدة مثلما استهدفت بالتا بعد الحرب الساخنة الثانية اقتسام أوروبا وربما يفسر لنا ذلك ما حدث فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ وكذلك الصراعات الاقليمية الاخرى مثلاً حرب الهند - الباكستان والحرب فى كمبودشيا ولاوس فى آسيا ، وكذلك ما حدث فى أنجولا وموزمبيق وحرب القرن الافريقى (حيث تغيرت موازين القوى فأرتبطت اثيوبيا مع الاتحاد السوفيتى الذى خسر الصومال لصالح الولايات المتحدة) وذلك اضافة لارتباط ليبيا وعدن وسوريا والعراق مع الاتحاد السوفيتى الذى تدخل عسكرياً فى افغانستان وفى نفس الوقت الذى خرجت فيه الولايات المتحدة من ايران المجاورة^(٤٤) . وهذا يقودنا للحديث عن بعض نماذج سياسات الاستعمار الحديث فى العالم الثالث .

كما لاحظنا سابقاً فان الاستعمار الحديث هو الشكل الجديد للاستعمار التقليدى فهو بالتالى امتداد له فى العالم المعاصر حيث انه يسعى أيضاً لفرض التبعية العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية والايديولوجية على العالم الثالث ، ولكن بأساليب جديدة وغير مباشرة . وتستخدم الامبريالية العالمية الجديدة أساليب متعددة ومختلفة للوصول الى أهدافها المصلحية ونكتفى فى هذا المجال بذكر بعضها وبشكل موجز .

تشجيع الحروب الاقليمية واقامة القواعد العسكرية ؟

يشجع الاستعمار الحديث الحروب الاقليمية القائمة على مشاكل الحدود التى تلاعب بها الاستعمار التقليدى من قبل ، وذلك بهدف زيادة مبيعاته من الاسلحة من ناحية وانهاك القوى الاقتصادية لهذه

البلدان من ناحية أخرى . ولا شك أن الحرب العراقية - الإيرانية التي استمرت حتى الان لاكثر من خمس سنين وما زالت مستمرة خير شاهد على ان المستفيد الوحيد من هذه الحرب هو الامبريالية العلمية الجديدة ، كما أن حروب الحدود ما زالت قائمة وتنفجر من وقت لآخر . ومثال ذلك ما حدث في بداية هذا العام بين مالى وبوركينا (فاسو) (فولتا العليا سابقاً) . وفي ذلك يقول أحمد سيكوتورى : - « هناك من يحاول أن يفسر لنا ، وينجح احياناً في اقناعنا ، ان من مصلحتنا القيام بحروب تصحيح للحدود واعادة الهيكل السياسى القديم لافريقيا ما قبل الاستعمار ، وهذا ما يلائم في الواقع مصالح الاستعمار الجديد »^(٤٥) ويبدو أن (الوفاق) بين الدولتين العملاقتين قد قام على اساس (التنافس مع التعايش) اذ اتفق الجانبان على المقاومة بدل المواجهة^(٤٦) . ولا شك أن العالم الثالث هو المتضرر الوحيد من هذا التنافس بين العملاقتين وفي ذلك يصدق المثل الاسيوى : اذا تصارعت الايال فالمتضرر الوحيد هو العشب .

ومن الامثلة الاخرى لاساليب الاستعمار الحديث اقامة القواعد العسكرية حيث يلاحظ أن الدوائر في الغرب تلجأ الى الابتزاز والتمهيد كى تترع من البلدان الاخرى موافقتها على السماح للقوات الاجنبية بالبقاء في اراضيها واقامة قواعد لقواتها الجوية أو البحرية . ويمكن تفسير وجود هذه القواعد العسكرية للدول الامبريالية بالاسباب التالية^(٤٧) .

- ١ - انها أدوات هامة للاحتفاظ بالاستعمار أو اتباع سياسة استعمارية جديدة .
- ٢ - انها تستخدم كسلاح للتدخل في الشؤون الداخلية والخارجية للدول المقامة على أراضيها .
- ٣ - أنها وسيلة مريحة للسيطرة على الاتصالات الدولية وجميع المعلومات العسكرية والسياسية والاقتصادية عن طريق التجسس .
- ٤ - انها تقدم على الاراضى الاجنبية مزايا تجارية معينة للبلد الذى اقامها .
- ٥ - انها تخدم للولايات المتحدة وغيرها من البلدان الرأسمالية أغراض العدوان ، وذلك على أساس الاعتقاد السائد في الغرب أن الدول الامبريالية يمكنها بسهولة أن تشن هجوماً ناجحاً ضد الاتحاد السوفيتى والبلدان الاشتراكية الاخرى مستفيدة في ذلك من شبكة القواعد العسكرية ، ولا شك أن القواعد العسكرية تشجع الامبرياليين على انتهاج سياسة مراكز القوة لا ضد البلدان التى تقع فيها وحسب ، وانما ضد الدول المجاورة كذلك ، كما حدث مثلاً بعد تأميم قناة السويس في العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ عندما قصفت الطائرات البريطانية ، من قواعد قبرص وعدن ، المدن المصرية وضربت مدينة بورسعيد . وقد تتضمن تلك السياسة أسلوب التهديدات العسكرية اضافة للضغط أو الحصار الاقتصادى كما فعلت مؤخراً الولايات المتحدة الامريكية ضد ليبيا بعد اتهامها بتدبير العمليات الارهابية التى حدثت ضد شركة العال الاسرائيلية في مطارى روما وفينا .

الاستعمار الاقتصادى :-

المقصود بعبارة الاستقلال الاقتصادى المرجو لبلدان العالم الثالث ، والذى يعيه الاستعمار الاقتصادى المموه من قبل الدول المتقدمة صناعياً ، هو درجة الحرية في رسم السياسة الاقتصادية

القومية ومستوى حق المشاركة في اتخاذ القرارات السياسية الدولية الخاصة بهذه البلدان . وتظهر السيطرة الخارجية الاستعمارية المتحكمة ببلدان العالم الثالث في أربع حالات اقتصادية أساسية^(٤٨) .

١ - المحافظة على هيمنة الشركات الاجنبية على انتاج البلدان الفقيرة وتجارتها ، وتقوية هذه الهيمنة باستمرار :

ويلاحظ أن هذه الشركات تخرج عن قرارات السلطات القومية المحلية ، عن طريق امكانيات المشاورة المتاحة لها بفعل أهميتها ، ونتيجة لامكانية الانتقال الى بلدان أخرى عند الحاجة ، فمثلاً عندما أتمت الحكومة السورية الشركات الكبيرة ، انتقلت رساميل شركة باتا الى بلدان أخرى . وتصبح بذلك أن خطورة السيطرة التي تمارسها هذه المشاريع متعددة الجنسية في بلدان العالم الثالث تتمثل في أن عائداتها تفيد الدول الصناعية أكثر من هذه البلدان .

٢ - طبيعة الانتاج المحلي الذي تخصص فيه البلدان الفقيرة تقع تحت تأثير حاجات بلدان الاستعمار القديم ، الى حد كبير ، مما يضاعف من الخضوع الاقتصادي الذي تعاني منه بلدان العالم الثالث .

ومن أمثلة ذلك زراعة القطن في مصر والسودان . ويضاف الى ذلك أن انتاج المواد الاولية المصدرة ، كالبترول الخام من دول الخليج ، دون أية عملية تحويل صناعية محلياً ، يقوى التفسخ الاقتصادي اذ يمنع قيام سوق وطنية ، كما يخضع أيضاً اقتصاد البلدان النامية لمفاسد الاسواق الخارجية والمضاربة^(٤٩) .

٣ - التدنى المستمر الذي يصيب ميزان التبادل الاقتصادي هو خلل يحصل على حساب البلدان النامية . وهذا العطب في الميزان التبادلي يبدو مرتبطاً أساسياً بنتائج السيطرة الاقتصادية التي تمارسها البلدان المصنعة على بلدان العالم الثالث . فالبلدان المصنعة تستطيع ، بالفعل أن تخلق تنافساً على الاسواق بين البلدان النامية ، في حين أن هذه الاخيرة لا تقدر على خلق النسبة ذاتها من التنافس بين البلدان المصنعة .

٤ - المعنى الاقتصادي الذي تنطوي عليه المساعدات الممنوحة للبلدان الفقيرة من قبل الدول المتقدمة بهدف التوظيف الاستشاري لا يتضمن بالتالي صفة المساعدة التزیهة المتجردة لان غالبية المساعدات الممنوحة حالياً لبلدان العالم الثالث هي مساعدات مشروطة لمصلحة الدول المصنعة ، كما أنها قد تحدث تأثيراً مناقضاً تماماً لمبدأ المساعدة ذاته : مساندة الحكومات المعطية سياسياً واقتصادياً ، تسهيل عملية تحويل العملة الصعبة للدول المصنعة ، وأحياناً تكليف أشخاص من ذوي الكفاءات غير الاكيدة بمسؤوليات استراتيجية . ولا شك أن لكل ذلك آثاراً سلبية على بلدان العالم الثالث ، كما هو الحال أيضاً بالنسبة لآثار الاستعمار الثقافي والفكري الذي هو أيضاً من أخطر أشكال الاستعمار الحديث .

الاستعمار الثقافي والفكرى :-

هذا الشكل من الاستعمار الحديث يتخفى وراء أعمال المحبة ، والبذل في سبيل البشرية والاخوة الثورية التى تدعى أنها تساعد في التحرر من الاستعمار الجديد ذى الوجه الاقتصادى ، بينما تسعى في واقع الامر لجعل التبعية والعبودية مؤبدة على بلدان العالم الثالث لأنها تعيق القدرات الخلاقة الكامنة في هذه المجتمعات المتطلعة الى التطور . ويتصف هذا النوع الجديد من الاستعمار حالياً بثلاثة مظاهر أساسية (٥٠) :

١ - الامبريالية العقائدية (أو الايديولوجية) تجعل من نفسها مركزاً تحورياً بالنسبة الى الامم التى يمكن ادخالها في امبراطوريتها العقائدية . وهذا الاسلوب تتبعه الدول الغربية وغير الدول الغربية ، في عالمنا المعاصر . فالبلدان المصنعة بعد أن ظنت نفسها قد ملكت الحقيقة الرأسمالية ، ثم النتائج العلمية لأنماط النمو الاجتماعية ، بدأت تبذل جهودها لتصدير التجربة التى اتبعتها من خلال مراحل نموها . ولكن هذه العقيدة ، سواء جاءت من الشرق أو من الغرب ، ترفض كل محاولة تجديد مبتكرة ، معتبرة أياها غير مجدية . فأنصار العقيدة الليبرالية يرون في مختلف اشتراكات العالم الثالث تنازلات تراعى الحساسيات القومية ، وتنطوى هكذا على توضيحات كبيرة . أما الماركسيون فينعون على هذه المحاولات كونها مناورات تهدف الى تمويه الاستعمار الجديد ، متيحة للرجعية أن تبعد الحل الحقيقى الاوحد ، أى الحل الماركسى ، ولهذا السبب يضطر المفكرون والسياسيون في العالم الثالث الى اتباع أحد العقائد الجاهزة ، النابعة من خارج بلدانهم ، والتى تحول دون الابتكار القومى الحقيقى الذى من شأنه أن يحيط ، أحاطة أفضل ، بالحاجات المحلية .

٢ - النظام التربوى : يتجلى الاستعمار الجديد أيضاً في كون الكثير من أنظمة التعليم السائدة في بلدان العالم الثالث غير ملائمة . فسواء كان النظام التربوى موروثاً عن الانظمة التربوية الاجنبية ، أو حصيلة ابتكار حديث ، فهو في غالبية بلدان العالم الثالث يعانى من ثلاثة مشاكل أولها التركيز في التعليم العالى على تخريج اختصاصيين من ذوى المستويات الرفيعة يكونون ثروة جديدة من المهارات التى يسرقها العلم المتقدم تحت ستار هجرة الادمغة . وثانيها أن العلاج بواسطة التركيز على المعاهد التقنية فقط يؤدى أيضاً الى أن هذه اليد المتخصصة تجد ، كأفضل فرصة لها في الظروف الحالية ، أن تشتغل لدى الشركات الاجنبية المزروعة في البلاد مما يبعدها عن التفكير في سياسة وطنها الاقتصادية كما يفقدها الحركة والمعارضة بهذا النظام بصورة فعالة . وثالثها أن عمليات تهيئة فرص العمل التى أصبحت معتمدة من أجل توجيه اصلاحات مناهج التعليم في العديد من بلدان العالم الثالث ، تستند غالباً الى الشواغر المتوقعة انطلاقاً من الوضع القائم حالياً بدلاً عن تبديل البنيات الذى من شأنه أن يخلق فرص عمل جديدة .

٣ - التعسف النفسى أو السيطرة السكولوجية : أدق شكل من أشكال الاستعمار الجديد هو الذى يتبدى بصورة نوع من الاعمال الانسانية - المرححة - ذات المضار النفسية الواضحة .

فتصرف بعض المعاونين الثقافيين غالباً ما يكون أكثر ضرراً بالنسبة الى مصالح البلاد من تصرفات المستغلين الاستعماريين القدماء ، لأنه توجيهي . فبينما يقوم عدد من المعاونين الثقافيين الوافدين ، أو الموفودين ، الى العالم الثالث ، بالتركيز على انتقاد مختلف أشكال التعسف والاختفاء والفضائح التي يرتطمون بها في هذه البلدان ، فإنهم انما يتصلون في الواقع من تحمل أية مسئولية . وعليه فإنهم ينسفون الامل ، ويصبحون في النهاية أخطر أعوان الاستعمار الجديد ، اذ أنهم يخلقون انطباعاً لدى أصحاب النوايا الحسنة أنفسهم بأن التطور مهمة مستحيلة وأنه حتى بالنسبة الى الذين لا يتبعون مصلحتهم الانسانية ، يظل تقدم العالم الثالث حلاً غير ممكن التحقيق ، وتترتب على ذلك آثار سلبية على بلدان العالم الثالث حيث تفشل هذه البلدان في الاعتماد على نفسها فتقع بذلك فريسة سهلة للسيطرة الايديولوجية الاجنبية .

الخاتمة :-

ظاهرة الاستعمار ترجع في أصولها لمفهوم العبودية التي مارسها البشر على بعضهم البعض منذ العصور التاريخية القديمة وخاصة في أوربا حيث تكونت الامبراطوريات الاولى (اليونانية والرومانية) فكانت النواة لامبراطوريات أوربا الاستعمارية في العصور الحديث . وقد جاء الاسلام محرراً للانسان من جميع أنواع العبودية ومن نظام الرق الذي ساد في عالم الجاهلية قبل مجئ الاسلام ، كما أن الامبراطورية الاسلامية التي غطت العالم من شرقه الى غربه في فترة ما سمي بالعصور الوسطى المظلمة في أوربا ، كانت امبراطورية تحريرية بالنسبة للبلدان التي وقعت تحت سيطرة الامبراطوريات القديمة .

وعليه فإن الظاهرة الاستعمارية تعني نظرياً وفي حقيقة الامر بالسيطرة والهيمنة الكاملة من قبل قوم متفوقين على قوم أضعف منهم ، وهي بالتالي تعبير عن مبدأ سيطرة القوى على الضعيف ، وهو مبدأ يتعارض مع مفاهيم المساواة والاخوة الانسانية التي جاءت بها الرسالات السماوية ، كما يتعارض مع مفهوم الانسان كمخلوق متحضر ميزه الله تعالى عن بقية المخلوقات بصفة العقل وذلك لان الاستعمار يقوم أساساً على استخدام القوة والقهر . وهذا ما فعلته أوربا في مرحلة الكشوف والثورة الصناعية عندما اعطت لنفسها الحق في السيطرة على الشعوب الاخرى في العالم الثالث وشرعت فعلياً في تطبيق سياستها الاستعمارية حتى قبل مؤتمر برلين (١٨٨٥) الذي أعطى الضوء الاخضر للتنافس الاستعماري الشرس الذي عرف باسم التكالب على افريقيا . وأرادت أوربا بهذه السياسة الاستعمارية أن تسعى لاربنة العالم لتحقيق مصالحها وأهدافها على حساب شعوب العالم الثالث .

وبذلك نشأ الاستعمار التقليدي بأهداف وأغراض متعددة لفرض السيطرة الكاملة المباشرة في شتى المجالات - العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية - على شعوب العالم الثالث مما أفقدها استقلالها وسيادتها .

وكانت لهذا الاستعمار التقليدي (أى القديم) أهداف قريبة المدى تمثلت في الجوانب الاستراتيجية والاقتصادية بينما ركزت أهدافه ذات المدى البعيد على الجانب الحضارى وذلك بغرض طمس

وتشوية العالم الحضارية للبلدان المستعمرة . واستخدم الاستعمار التقليدى فى كل ذلك أساليب متعددة ومختلفة للوصول الى تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة ، ومن هذه الأساليب :

السيطرة العسكرية والقمع ، استغلال ونهب الثروات الطبيعية ، تجزئة وتفتيت الوحدة الداخلية من خلال سياسة فرق تسد والتلاعب بالحدود ، تشجيع التبشير الغربى والاستيطان الاجنبى ، فرض لغة المستعمر وثقافته على البلدان المستعمرة .

ولهذا كان من الطبيعى حدوث ردة فعل ضد وجود وسياسات هذا الاستعمارى التقليدى من قبل شعوب البلدان المستعمرة . فترتب على ذلك ظهور الحركات الوطنية التحررية فى مختلف اجزاء العالم الثالث . واستخدمت هذه الحركات ، بعد فشل المقاومة المسلحة : اساليب المستعمر نفسه بهدف التخلص من سيطرته ومن أجل الوصول الى الاستقلال . والحقيقة أن حركات التحرير قد استخدمت شتى الوسائل من سياسية ودبلوماسية (لكسب الرأى العام العالمى فى المنظمات الدولية) وحتى عسكرية (خاصة فى الحالات التى اقتضى فيها الامر اللجوء للعنف) لبلوغ ذلك الهدف الاساسى وهو الاستقلال . ونجحت هذا الحركات التحررية فى النهاية فى اجبار الاستعمار التقليدى على التراجع والزوال مما جعل بلدان العالم الثالث تحصل على استقلالها وتكون بذلك قد مرت كلها بنفس الظروف من حيث خضوعها للاستعمار التقليدى ، وقيامها بالحركات التحررية ضده ، ثم مواجهتها لنفس المشاكل بعد حصولها على الاستقلال .

ولكن نهاية الاستعمار التقليدى لم تكن فى واقع الامر نهاية لظاهرة الاستعمار لانه وبعد ظهور القطبية الثنائية والدولتين العملاقتين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى) بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث احتدم بينهما التنافس العقائدى وتكونت اخلافها العسكرية ، استمر الاستعمار فى شكله الخفى والغير مباشر والذى عرف بالاستعمار الحديث (أو الجديد) ، ولكنه سار على نفس أهداف الاستعمار التقليدى حيث يركز على فرض التبعية على دول العالم الثالث فى شتى المجالات ، كما يسعى لتقسيم العالم فى شكل مناطق نفوذ تابعة للكتلتين الغربىة الرأسمالية والشرقية الشيوعية . ومن بين اساليب الاستعمار الحديث تشجيع الحروب الاقليمية واقامة القواعد العسكرية وفرض السيطرة الاقتصادية (بالاتفاقيات غير المتكافئة والمساعدات المشروطة مثلاً) وكذلك فرض السيطرة الثقافية (أو الايديولوجية)

وقد التقت الامبريالية العالمية الحديثة مع بقايا الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين وجنوب أفريقيا . وتشكل فى النهاية جميع النقاط السابقة الذكر امكانية صياغة نظرية عامة حول ظاهرة الاستعمار . وتبقى فى النهاية أيضاً ضرورة قيام دول العالم الثالث بواجبها فى مواجهة قوى الاستعمار الحديث ، وذلك من خلال تقوية الوحدات الاقليمية ومن عبرها تقوية حركة عدم الانحياز لكى تصبح منظمة دولية قوية فعالة حيث تسعى ، كما فعلت منذ تأسيسها عام ١٩٦١ ، لرفض الاستعمار الحديث والقضاء عليه من أجل قيام عالم تسوده مثاليات السلام والامن والتعاون وحقوق الانسان التى نصت عليها المواثيق الدولية .

الهوامش :-

- (١) أنظر ندوة « دول العالم الثالث » التي عقدت بجامعة الامارات العربية المتحدة وشارك فيها الكاتب ، نشرت في مجلة العلوم الاجتماعية ، العدد الثاني ، السنة السابعة ، يوليو ١٩٧٩ ص ٩١ .
- تجدر الإشارة الى أن الفريد سوفي هو أول من استخدم تعبير « العالم الثالث » على غرار تعبير « الطبقة الثالثة » وهي من جميع فئات الشعب ما عدا النبلاء ورجال الدين .
- أنظر جان لاكويبر وجان بوميه ، الدول النامية في الميزان ، ترجمة فوزى عبد الحميد ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، مجموعة اخترنا لك ، بدون تاريخ ، ص ٩ وما بعدها .
- (٢) أحمد عطية الله ، القاموس السياسي ، القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٨ ، الطبعة الثالثة ، ص ٥٨-٥٩ .
- (٣) أنظر د. جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، بيروت ، دار الشرق ، ١٩٨٣ ، ص ١٣ - ٢٠ .
- (٤) المصدر السابق ، ص ٢٦ - ٢٧ .
- (٥) R. J. Harrison Church, Modern Colonisation, London, 1951, P. 18-22 & 106
- نقلًا عن المرجع السابق ، ص ١٤٩ .
- (٦) أنظر د. جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ٥٤-٥٦ .
- (٧) المصدر السابق ، ص ٥٨ .
- (٨) المصدر السابق ، ص ٦٠-٦٣ .
- (٩) أنظر المصدر السابق ، ص ١٠٨ - ١٢٠ .
- (١٠) حول التقسيم الاستعماري الافريقى أنظر مثلاً :
- Roland Oliver & Anthony Atmore, L'Afrique depuis 1800, Paris, P.U.F., 1970. PP. 114-142 .
- (١١) أنظر للمصدر السابق ، P 132 ، على محمد بركات ، السياسة البريطانية واسترداد السودان (١٨٨٩ - ١٨٩٩) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ، ص ١٨٧ - ٢١٣ .
- (١٢) Hemri Grimal, Histoire du Commonwealth Britannique, Paris, Que sais-je? (No. 334), P.U.F., 1965, P.6
- وأنظر أيضاً
- Andre' Bourde, L'Afrique Orientale, Paris, Que sais-je? (No. 1308), P.U.F., 1968. P. 37.
- (١٣) أحمد سيكوتورى ، أفريقيا والثورة ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومى ، ص ٩٢ - ٩٣ .
- (١٤) ندوة « العالم الثالث » ، سبق ذكرها ، ص ٩٢ - ٩٣ .
- (١٥) أنظر عن هذه الثورات د. سليمان محمد الطماور ، التطور السياسى للمجتمع العربى ، القاهرة ، دار الفكر العربى ٢٧ ، ١٩٦٦ ص ١٦٧ - ١٧٨ .
- أنظر الحركات التحريرية في دول المغرب العربى د. حسن سيد سليمان ، المغرب العربى - التطور السياسى والدمستورى ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٨٢ ، ص ١١ - ٦٣ .
- (١٦) أنظر المرجع السابق عن دول المغرب العربى .
- (١٧) تجدر الإشارة هنا الى مؤتمر الدراسات الافريقية والاسيوية بجامعة الخرطوم في الفترة من ٨ الى ١٥ يناير ١٩٨٥ وقدمت فيه أكثر من أربعين ورقة في شتى جوانب الحركة الوطنية في السودان .

(١٨) بالنسبة لدول الخليج أنظر: د. جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي دراسة لتاريخه المعاصر (٤٥ - ١٩٧١) ، القاهرة معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٤ ، وكذلك د. محمد مرسي عبد الله ، دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها ، الكويت ، دار القلم ، ١٩٨١ .

(١٩) انظر: Roland Oliver & Antlony Atome, op. cit., P.234.

(٢٠) انظر المصدر السابق . ص 241 - 245 ، 263 - 270

(٢١) المصدر السابق . ص 245 - 251 . انظر أيضاً عن تصفية الاستعمار في أفريقيا: Aguibou Y. Yansane" (editor), Decolonization & Dependency, London, Greenwood Press, 1980.

(٢٢) د. ذوقان قرقوط ، المشرق العربي في مواجهة الاستعمار - قراءة في تاريخ سوريا المعاصر - القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ ، ص ٤ .

(٢٣) أنظر مثلاً د. مذكر عبد الرحيم الطيب ، مشكلة جنوب السودان ، الخرطوم ، الدار السودانية ، ١٩٧٠ ، و Mohamed Omer Beshir, The Southern Sudan-Background to conflict, Khartoum, K.U.P (Khartoum University Press, 1968.

(٢٤) د. ذوقان قرقوط ، سبق ذكره ، ص ٤ و ٦ .
(٢٥) د. حسن سيد سليمان ، للمغرب العربي ، سبق ذكره ، ص ٤٩ .
(٢٦) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٢٧) أنظر مثلاً د. عبد الوهاب الكيالي ، تاريخ فلسطين الحديث بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ٢ ، ١٩٧٣ و د. وليد قحاوي ، النكبة والبناء في الوطن العربي ، بيروت دار العلم للملايين ، ط ٢ ، ١٩٦٢ .

(٢٨) منير ماشوش ، الصهيونية ، بيروت ، دار السيرة ، ١٩٧٩ ، ص ٣٠ .
(٢٩) د. حسن سيد سليمان ، كيف نواجه النازية الصهيونية ؟ جريدة الاتحاد (أبو ظبي) . العدد الاسبوعي ، ٢٢ أبريل ١٩٨٢ .

(٣٠) أنظر منير ماشوش ، سبق ذكره ، ص ٧٩ - ٨٦ و د. جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ١٣٦ - ١٤٠ .
(٣١) راجع مثلاً حبيب تهاوي ، العرب في ظل الاحتلال الاسرائيلي منذ عام ١٩٤٨ ، بيروت ، مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، (٣٨) ، ١٩٧٢ .

(٣٢) د. جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ١٣٩ - ١٤١ .
لننظر أيضاً شيريد سبيريد فيتش ، حكومة العالم الخفية ، ترجمة مأمون سعيد ، بيروت ، دار النفوس ، ط ١٨٠ ، ص ٧ - ٨ حيث جاء في المقدمة أن المؤلف ينطلق من قناعة كاملة بوجود هيئة يهودية لها صفة عالمية قدر عدد أفرادها في أوائل القرن العشرين بثلاثمائة رجل يهودي يرأسهم أحدهم ، نظامهم ديكتاتوري استبدادي ويعملون وفق خطة قديمة مرسومة للسيطرة على العالم ، فهي عبارة عن حكومة خفية تحكم الشعوب بواسطة عملائها .

(٣٣) Roland Oliver & Anthony Atmore, opcit, p 279-81 .

(٣٤) أنظر روث فيرست ، أفريقيا الجنوبية الغربية - مستعمرة التفرقة العنصرية ، ترجمة عبد السلام شحاته ، القاهرة ، وزارة الثقافة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، سلسلة من الفكر السياسي والاشتراكي ، بدون تاريخ ، ص ٥٨ - ٩٨ .

(٣٥) Roland Oliver & Anthony A bnore opcil PP. 282-283 .

(٣٦) روث فيرست ، سبق ذكره ، ص ٨ و ١٠ .
(٣٨) د. جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ١٨٠ - ١٨٤ .
(٣٨) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .
(٣٩) المصدر السابق ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

- (٤٠) أنظر هيلين كاربر دانكوس السياسة السوفياتية في الشرق الاوسط (١٩٥٥ - ١٩٧٥) ، ترجمة عبد الله أسكندر ، بيروت ، دار الكلمة للنشر ، ١٩٨١ ص ١٧ وما بعدها .
- (٤١) د. جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ٣١٥ - ٣١٦ .
- (٤٢) المرجع السابق ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .
- (٤٣) أنظر حسين فهمي مصطفى ، التعايش السلمى ومصير البشرية ، القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر ، سلسلة من الشرق والغرب ، بدون تاريخ
- (٤٤) د. جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ٣٢١ - ٣٣٠ .
- (٤٥) أحمد سيكوتورى ، سبق ذكره ، ص ٣٢٠ .
- (٤٦) د. جمال حمدان ، سبق ذكره ، ص ٣٢١ .
- (٤٧) ابراهيم الشريف ، ركائز الاستعمار في العالم العربى القاهرة ، وكالة نوفوستى للانباء ، سلسلة قضايا سياسية ، ١٩٦٥ ص ٣٨ - ٤٠ .
- (٤٨) أنظر د. عفيف دمشقية ، تجربة العالم الثالث ، بيروت ، معهد الانباء العربى ، سلسلة الدراسات الاستراتيجية ، ط ٢ ، ١٩٨١ ، ص ٥٠ - ٥٧ .
- (٤٩) أنظر عن الاستعمار والبترول فريد هوليداي ، النفط والتحرر الوطنى في الخليج العربى وأيران ، ترجمة زاهر ماجد بيروت دار ابن خلدون للطباعة والنشر ، ١٩٧٥ ، ص ١٠ وما بعدها .
- (٥٠) د. عفيف دمشقية ، سبق ذكره ، ص ٥٧ - ٦٣ .

